

نظرة في مناظرة

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك



قال بعض أصحاب الفكر والدوق للماني : إن الثقافة وهي أطراف صالحة من أعمار العقول ، العلمية والفنية والأدبية ، بها يلتفت المثقف إلى المبادئ والأسباب والقوانين والحقائق ، ويرشد قومه إلى الأصح للحلم ، والأنفع لترقيتهم ، والأخلاق الإنسانية ...

ومناظرة الأستاذ العقاد بكلية الآداب - في أن « التراث الشرقي كاف لتضيح الحياة العقلية بين الشرقيين » - هي مشاركة في بحث يمتد إلى هذه الثقافة ، إذ يرى إلى إثارة الأذهان بالكشف عن الحقيقة في الخلاف بين الداهيين إلى الأخذ عن

وأولى الناس بهديه ، وهم من خذلوهم وهجروهم ، وحفظوا ظاهرهم وضميهم . « وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » فإن ترم لليوم في فرقة وشقاق فيما ضيّموا أخوة الإسلام ، وإن ترم في منة وهوان فيما فرطوا في عزة الإسلام ، وإن ترم أتباعاً فقد علمهم الإسلام مشرعة السيادة فنبذوها ، وأعطاهم أزمة القيادة فأضاعوها

أيها المسلمون ، هذه ذكرى نبيكم ، وميلاد تاريخكم ، ومبدأ مجدكم ، ومنشأ سعادتكم ؛ فإن شئتم لأنفسكم السيادة والسعادة فكونوا أهلاً لهذا الشرف . كونوا بأخلاقكم وأعمالكم جديرين بأن تسموا أمة محمد . ولا تتخذوا الانتساب إلى محمد هزواً ولبساً ، وتحسبوا الإسلام أسماء وأقوالاً ، فإنما هو الأخلاق والأفعال والجهاد الذي لا يقتر ، فمن شاء أن ينسب إلى محمد فهذه سنته ، ومن شاء مجد محمد فهذه طريقته

« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

هبة الزهراء هزائم

لغرب وبين القائلين بالاعتصار على تراث الشرق ، في سبيل نهضتنا ؛ والحقيقة تبين من مقابلة الشيء بغيره ، والموازنة بين الرأيين

أتى على الأستاذ الفاضل عبء المظاع عن الرأي الذي يصعب تأييده ، وهو ابن مجده ، فجاء من الحجج بما يصير الخروج منه . وكان كلامه ، مع إيجازه للطابق لنعنى المقام ، أحسن ما يستطيع متقف أن يقول في الموضوع . وفي الأدب العربي فصول في مثل إشار الدمامة على الجلال ، ونحو ذلك من الموضوعات التي لا يجيد متناولها إلا بأوفر دراية ولباقة . لكن ذلك الكلام أذكرنا مناقضات نوردو^(١) للآراء المألوفة في الاجتماعيات والنفسيات ، ورسالة روسو^(٢) في حمد الجهل وتفغيله على العلم ، وقد أجازها عليها مجمع ديجون^(٣) وكدنا نصدها يوم قرأناها

استخدم المناظر منطقاً وبياناً في طريقة حسيمة هدته إليها ثقافته ؛ وصاحب المنطق يستطيع أن يهدي به ويضل ، وصاحب البيان ساحر ، والثقافة قدرة إن شاء حارّها أحوال الهدى ضلالاً والضلال هدى ، وهو لم يشأ ، بل أراد فتح الأفكار والآراء بالنقضة ، وتعليم للنظر الأدبي وذلاقة اللسان بالمثل البارح ؛ وافتتح كلامه بقوله « كان من نسبي » أن أؤيد هذا الرأي ، فكأنه أراد أن ينبه في لطف على قبوله للقيام بهذا التأييد كي تقوم المناظرة المفيدة ؛ ولم يقل إن رأيه الشخصي هو الاكتفاء بالتراث الشرقي ، وإن ساق الحجج الحاذقة في كفايته لتضيح الحياة العقلية « عند الشرقيين »

قال : إن تراث الشرقيين هو « ما لم من أعمار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد سلوك ، وروح العقائد الدينية

Max Nordau : (١)

Paradoxes Sociologiques

Paradoxes Psychologiques

Jean Jacques Rousseau ; Eloge de l'ignorance (٢)

Dijon (٣)

دارجة في تطور عام واحد مطرد ، على نحو ما بينه « ريكلو »^(٦) و « ويلز »^(٧) وإن لم تحل قبائلها وشعوبها من أنواع للتفاوت في المدينة

فهما كان على هذا التراث من مسحة وطنية ومن أثواب اللغة العربية ، فهو في جوهره حلقة من سلسلة الأثار العقلية والتفسيمة ، وهي سلسلة لا يقف تمددها « منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة » .

وتلك أمور إنسانية في صميمها مهما كانت من قبيل ما يمتزج بحياة الشرقيين ، و « مصطفى بصبغة الشرق ويمجى على سنته »

وليس هذا يمنع من أن يقال : « إن الحياة العقلية إذا نضجت بين الشرقيين ، فهي لاحقة بالتراث للشرق أيًا كان المصدر الذي جاءت منه أو حلت عنوانه » ، مثل الفلسفة اليونانية كما نقلتها الحياة العقلية الشرقية إلى الشرق العربي ؛ أو يقال : إن الحقيقة الطبيعية أو الرياضية منسوبة إلى العقل الناضج الذي كشفها — كنسبة قوانين الجذب العام إلى نيوتن^(٨) — وإن كانت من « التراث الإنساني »

أما العقل فإننا إذا اعتبرناه عضواً في الإنسان ، كمينه وأذنه وسائر أعضائه للظاهرة والباطنة ، فهو ينضج كما تنضج بالبلوغ وتمتص إلى الأربعين ، وهو يؤدي وظيفته كما تؤدي وظائفها ، وذلك منذ تميز الإنسان عن الحيوان في ظلمات الماضي الأقصى ، بالنسبة إلى علمنا ، من اللانهاية الزمنية ، وإنما تميز بقدرة عقله على التصور والقياس والحكم . وعقل الإنسان « يعمل ويفكر ، ويبحث فيما يراه ويحيط به ، أيًا كانت المسائل التي يتناولها بتفكيره ويبحثه » منذ لم يكن له أي تراث في أي

والحكمة النفسية والفكرية ، وما يصاحب ذلك من فقه شريعة ودين » .

أما العلوم الطبيعية التجريبية — بمعنى العلوم الحديثة — والمعارف الرياضية ، فإنها خارجة عن التراث للشرق والتراث للغرب معاً ، لأن « الحقيقة الطبيعية ثابتة في جميع الجهات » ، يكتشفها « الإنسان باعتباره إنساناً مدركاً حيث كان » و « ما كشف منها في الغرب تنمة لما سبقها منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة ، فهي جزء من التراث الإنساني » ؛ ولأن المعارف الرياضية « لا تتوقف على المشاهدات والمحسوسات بمقدار ما تتوقف على قوانين العقل المجرد ، المذول عن خصائص الأوطان والأزمنة » .

لـ تحقيق النظرة للتراث للشرق محصوراً في هذه الحدود يظهر أن لبابه من ثمر أحوال النفس الواحدة في البشر ، ومن أحكام العقل البشري وتناجح تجارب الإنسان أينما كان ، ومن مقتضيات حاجاته في الحياة الإنسانية : فالحب — مثلاً — في الشرق هو الحب في الغرب ، وكذلك البغض أو الشجاعة أو الجبن ، أو الفرح أو الحزن وسائر الوجدانيات ، وكل أولئك معزول في ماهيته عن خصائص الأوطان والأزمان ؛ والإنسان « باعتباره إنساناً مدركاً حيث كان » ، قد عرف حاجته إلى الحب على الخير والنهي عن الشر ، وإلى إقامة النظام يتق به آفات القوضى ؛ وهذه المعرفة ونتائجها من التراث الإنساني . ومن الحكم واللواعظ للعربية ما له نظائر في تاليم « كونفوشيوس »^(٩) مثلاً ، أو في أخلاقيات « فوفنارج »^(١٠) ؛ وفي الشرائع الرومانية ما يقارب بعض للشرع الإسلامي ؛ وفي الأدب اليوناني ما يماثل بعض للشمع العربي ، وفي الأدب العربي ما يشبه أمثالاً وحكايات هندية أو فارسية أو غيرها ؛ وذلك كله بأن الإنسانية

Elisée Reclus (٦)

Vells (٧)

Isaac Newton (٨)

Confucius أو Koun-fou-Tseu (٩)

Lue de Clapiers de Vauvenargues (١٠)

مكان ؛ ولولا ذلك لما سما إلى مستوى هذه المدنية . فالسلامة البدنية والصحة النفسية تكفيان وحدهما أبداً لتصحيح العقل الذى يصيب ويخطئ ، كما تخطئ العين وتصيب ؛ وبين الأفراد تفاوت فى حصافته للفطرية كتفاوت حديثها فيهم ، ولكنه عقل ناضج بهذا الاعتبار على كل حال .

كان العقل للناضج هذا النضج فى الإنسان « يعمل ويفكر فيما يراه ويحيط به » يوم كان صاحبه يعيش عيشة الوحوش المفترسة ، ويخشى ظواهر الطبيعة التى يجهل كل شيء من أسرارها ؛ ويوم أدرك ضرورة الحد من حريته الفردية لفوضوية ، ويوم وضع 'نظماً' للعائلة فالقبيلة ، إلى آخر ما هنالك . وهذه مستويات تدرج الإنسان فى الرقى إليها مع تدرج عقله للناضج فى نضجه للتطورى بما غذاه ، فى كل وقت ، من تجاربه وتجارب سلفه وعمل عقولهم الإنسانية .

ويتضح مما تقدم بيانه أن العقل باعتباره عضواً من الإنسان له نضجان : نضج أول هو قدرته على تأدية وظيفته للفطرية ، وهو عام بين الأسماء لا يحسن تأديتها إلا به ؛ ونضج ثان هو إدراكه محمول أعمال العقول الإنسانية فى زمان معين من حياة البشر مع قدرته على المشاركة فى زيادة هذا المحصول أو تحصيله ؛ فلعقل البشرى فى كل مستوى أعلى من مستويات العرقان العام نضج أتم .

والجدير بالنظر إنما هو النضج الذى غذته أعمار العقول الإنسانية فى هذا الوقت ، والذى به يتيسر للشقف أن يشارك فى إغناء هذه الأعمار أو تحصيلها ، فى أية ناحية يميل إليها ، فيكون لعمله شأن يذكر له ويشكر ، والأستاذ نفسه أدرى للناس بالفرق بين نضج عقله القوى قبل أن يمس كل ما استوعب من الثقافة الثرية ، أو المعصرة ، وبين نضجه بعد ذلك ؛ لكن كان عليه أن يماضى رأى مناظره ، فعارضه بطريقة حاذقة شفت عن هذا النضج الأخير ، أى من ثقافة سامية

والخلاصة أن العقل 'بمد ناضجاً' ، أو غير ناضج ، لا من حيث تأديته وظيفته فحسب ، بل من حيث قيمة ما وعى وما ينتج ، فهى قيمة مناسبة لدرجة علمه وثقافته ، والمهم إذن فى النضج إنما هو مستوى « الموضوعات والمواد التى يتناولها » عمل العقل ؛ ولما ليس يمكن أن نضج للشرقيين حياة عقلية إذا هم لم يأخذوا من الغرب فى هذا العصر . أما إن هم اقتصروا على تراث الشرق بحاله المحدودة فى ثقافة عصر غابر كانوا كأنهم عائشون فيه ، ولمن أراد بنضج العقل ذلك للنضج الأول ، أو أراد نضجاً عتيقاً ، أن يقول إن « التراث الشرقى كاف لنضج الحياة العقلية ، ولم يخل الشرق من للعقول الناضجة قديماً وحديثاً »

فهارون الرشيد وابن خلدون كان كل منهما ناضج العقل فى مستوى الثقافة العربية فى زمانه ومكانه ، بمدئذ مضى على خروج العرب من شبه جزيرتهم قرناً إلى ثمانية قرون بنوا دولهم فيها على ما طوعوا للدين والشريعة من نظم ومدنيات . وفلسفات لأنهم كاليونان والرومان والفرس وسواهم . أما جمال الدين الأفغانى فقد يكون فيما نمته به مواضع نظر لملها تستدعى التحقيق العلمى التحرر من المؤثرات الوجدانية والسياسية ؛ ولولا ثقافته ما أقاد من الثقافة الفرنجية لاختلف شأنه . . .

وليس يصح أن نوازن بين عقول أمثال هؤلاء الرجال وبين عقول تلاميذنا لتفاوت الأسمان والتجارب والمشاغل ، ولقلة المحصول فى التلمذة فضلاً عن أننا ما تزال فى سبيل التحصيل من الثقافة الحديثة ؛ ولستنا نشك فى أن بين تلاميذنا النجباء من لا يقل فى نضج العقل ، ذلك النضج الأول ، عن أولئك الرجال حين كانوا فى سن التلمذة

ألا إن البحار والجبال لم تحمل دون التنقل والاتصال بين بنى الإنسان من قديم الأزمان حتى عصر الطيران . والناس إلى الآن يفرقون بين الشرق والغرب ، وبين الأسود والأبيض ،